المجلد 1، العدد 1، 2004، ص ص 21- 31

الاستشراق الفرنسي: ضرورة مثيرة للجدل؟

(محاضرة)*

فلوريال سناغوستان**

لا يخفى على أحد أن فرنسا تتمتع بإرث طويل من الدراسات الاستشراقية تعود إلى القرون الوسطى وما بعدها. حيث اشتهر خلالها عدد من العلماء (أ.غالان ،س. دي ساسي،ل. ماسينيون، أ. ميكيل). ولقد ساعدت أعمالهم وخاصة في مجال تحقيق المخطوطات والترجمة والموسوعات " مثل دائرة المعارف الإسلامية "، وقواعد اللغة، على تطوير معرفة عميقة بالشرق العربي الإسلامي. إلا أن هذه الحركة الاستشراقية العلمية الفريدة شهدت خلال العصور تطوراً ملموساً، وذلك أن العلماء كانوا في البداية يهتمون قبل كل شيء بالنصوص الدينية والعلمية (القرآن وبحوث الرياضيات والفلك والطب)، فأنة مع بداية القرن العشرين توسعت دراساتهم لتشمل المجتمعات والعادات والفولكلور والعلوم السياسية وفقة اللغة بهدف معرفة الأسس الدينية والسياسية والثقافية التي تشكل العالم العربي.

والآن ماذا تبقى من الاستشراق بعد النقد الشديد الذي شنه إدوارد سعيد، سنبذل جهدنا أن نبين أنة على الرغم من بعض التشوهات الفكرية التابعة للاستعمار، فإن الاستشراق الفرنسي ساهم بجدارة في اكتشاف الأخر. وفي سياق الدعوة الحالية لحوار الحضارات فإن الاستشراق بمفهومة الجديد، لم يعد سوى معادل لما يمكن أن نطلق عليه " الاستغراب "، أي معرفة العالم العربي الإسلامي لأسس الحضارة الغربية.

1- التعريف بالاستشراق:

إنه تيار علمي من شانة البحث في الحضارات الشرقية جمعاء. فأول ذكر للكلمة باللغة الفرنسية تم سنة 1799 بمعنى "اهتمام العالم بإحدى الثقافات الشرقية ". ثم في القرن التاسع عشر ارتدت الكلمة معنيين أولهما يخص الجانب الثقافي العام وهذا كان شأن الفنانين والرسامين والأدباء الذين كانوا يستلهمون بكل مظاهر الشرق، وثانيهما يشمل البحث الجامعي بما فية من

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2004

* ألقي محاضرة في المعهد الفرنسي للشرق الأوسط، دمشق، سوريا.

** أستاذ في جامعة ليون، ليون، فرنسا.

أبحاث في علم الآثار واللغات السامية والديانات واللاهوت. فبسبب تخصص هولاء العلماء بالحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات الشرقية أطلق عليهم اسم المستشرقين. وبالتالي انعقد أول مؤتمر للمستشرقين بباريس سنة 1873 وأسسوا مجلة خاصة بهم ألا وهي المجلة الأسيوية عام 1830. لكن من الملاحظ أن هذا التيار العلمي كان يتعدى حدود فرنسا وقد ازدهر أيضاً في عدة دول أوربية مثل ألمانيا وهولندا وبريطانيا العظمى. ومن الجدير بالذكر أن المستشرقين الغربيين كانوا آنذاك يتعاونون مع علماء عرب بالمغرب العربي كما في المشرق. فكان بعضهم يدرس المجتمعات الإسلامية وكأنها مخالفة تماماً للمجتمعات الغربية، والبعض الآخر كان يندرج في إطار حوار الحضارات وأخص بالذكر العلماء الذين انكبوا على دراسة التصوف مثل لويس ماسينيون، وهناك من لجأ منهم على مناهج معارفية خاطئة على غرار النحويين الذي حللوا النحو العربي استناداً إلى معايير مستقاة من النحو اليوناني. واعتباراً من أواخر الخمسينات، لم تعد كلمة الاستشراق شائعة كثيراً إذ حلت محلها تعابير أخرى لدراسات شرقية أو دراسات عربية.

2 - أصول الاستشراق :

إن الأدوات الأولى المعروفة في أوروبا لدراسة التراث العلمي العربي هي قواميس نشرت في اسبانيا في القرن الثاني عشر وبالأخص قاموس لاتيني – عربي يضم 11000مادة (Glossarium Latino – arbicum) وقاموس عربي يحتوي على 4000 كلمة لاتينية مع 8000 كلمة عربية تعادلها (Vocabulista in arabica). أنهما استعملا في المناطق التي استرجعتها الجيوش المسيحية بالأندلس. وبعد فتح طليطلة سنة 1085 أصبحت المدينة مقر الأسقفية وبالتالي مركزاً هاما لترجمة النصوص الفلسفية والعلمية العربية إلى اللاتينية بالإضافة إلى بعض أمهات الكتب الدينية الإسلامية، وذلك تحت إشراف الأسقف ريمون داجين (1125 – 1151) ففي هذا الإطار كلف بطرس لوفينربل (1156 – 1094) رئيس دير كلوني بفرنسا الراهب روبير دي شستير بترجمة القرآن الكريم سنة 1142[1]. وكان بطرس يعتقد أن معرفة أصول الإسلام ضرورية للانتصار على دار الإسلام وكان وفقاً لذلك الموقف، يدافع عن ما قد نسمية الطريقة التبشيرية. وصارت دراسة العربية شائعة بالغرب في القرن الثالث عشر لما أسست كل من جامعات روما وبولونيا وباريس وأكسفورد وسلامانكا وكانت تدرس في هذه المؤسسات العلمية إلى جانب العربية ثلاث لغات شرقية أخرى هي اليونانية والعبرية والسريانية. ولا شك أن عدد الذين كانوا يحسنون العربية خلال تلك العصور الوسيطة لم يتجاوز الخمسين شخصاً معظمهم رهبان، إذ كانت الجامعات الآنفة الذكر تابعة للكنيسة مثل كل الجامعات الأوربية.

من ناحية أخرى، لابد أن نشير إلى أن تلك الحركة العلمية الفذة استوعبت النتاج العلمي العربي الإسلامي التابع لما يطلق عليه اسم العلوم العقلية، يعني الفلسفة وعلم الفلك والطب

والرياضيات الخ.... ففي غضون القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجمت من العربية والعبرية مراجع أساسية مثل كتاب الشفاء والقانون في الطب لابن سينا (على يد جيرار الكريموني، ت 1187) ومعظم نصوص المدرسة الأرسطية والأفلاطونية التي شرحها الفلاسفة العرب كالفارابي مثلاً. ولا يخفى على أحد أن الفكر الغربي تأثر تأثراً جذرياً بالفلسفة العربية وذلك واضح في آثار المفكرين روجية باكون (ت 1292) وروبير جروستيت (ت 1253) وألبير لوجران (ت 1280) وتوماس الأكويني (ت 1274) وسيجير دي برابان (ت 1282) الذي انتمى الى المدرسة الفلسفية الرشدية.

وبغض النظر عن اسبانيا، نشأت كذلك حركة ترجمة الى اللاتينية في جنوب إيطاليا وفي صقلية. ومما لفت اهتمام الباحثين الغربيين بالحضارات الشرقية روايات الرحالة الذين ساحوا بأقصى الشرق كوليم دي روبروك وماركو بولو في منتصف القرن الثالث عشر ، فوضع هؤلاء تحت متناول الجميع أخباراً عن ثقافات وديانات وشعوب غريبة عنهم. وفي فترة لاحقة بعد فتح غرناطة بسنوات قليلة، صدر باسبانيا قاموس آخر يطلعنا على حالة العربية آنذاك، نعني به "المعجم العربي بالأحرف اللاتينية (Vocabulista aravigo en letra castellana) لبدرو دي ألكلا الذي طبع عام 1505. وأخيراً علينا أن نذكر الدور الجوهري الذي لعبته الطباعة في إطار نقل المعرفة. فأول مطبعة عربية أنشئت في روما عام 1514 ثم بالبندقية عام 1537. ومع أنه كانت الكتب الأولى التي طبعت تخص الميدان الديني الكاثوليكي، سرعان ما انتبه العلماء إلى ضرورة نشر كتب في فقه اللغة العربية للطلاب والتأريخ وتحقيق المخطوطات مثل تأريخ مختصر الدول لبار عبري أو حي بن يقظان لابن طفيل (1671)، أو كتاب النجاة لابن سينا (روما 1593).

3 - مرحلة إنشاء المؤسسات العلمية بفرنسا :

ومع توطيد العلاقات السياسية والدبلوماسية والتجارية بين فرنسا والدولة العثمانية صارت الحاجة ماسة إلى تأهيل مترجمين وباحثين ودبلوماسيين قادرين على التداول مع الشرقيين مما أدى إلى تأسيس عدة مؤسسات هامة تبقى نشيطة حتى أيامنا هذه :

1 – **كوليج دي فرانس** : كانت نقطة الانطلاق الحقيقية الرسمية للدراسات العربية بفرنسا تلك المؤسسة العلمية التي أوجدها الملك فرانسوا الأول سنة 1530 باسم كوليج دي فرانس (College de France) فكان هذا الملك يهتم بالمخطوطات الشرقية خاصة، وكان كذلك على اطلاع جيد باللغتين العربية والتركية. وعين عام 1538 جيوم بوستال (Guillaume Postel) في هذا المعهد مدرساً لكل من اللغات اليونانية والعربية والعبرية.

وكان هدف الملك فرانسوا الأول من إنشاء هذه المؤسسة مقاومة العقلية الجامدة المسيطرة على جامعة باريس آنذاك لأنها كانت تحتقر التعميم في التعليم وتقتصر على أربع كليات،

كلية اللاهوت وكلية الحقوق وكلية الطب وكلية الآداب والفنون بغض النظر عن الاختصاصات الحديثة مثل اللغات الشرقية. فمثل تأسيس معهد كوليج دي فرانس إذا خطوة حاسمة في طريق الاستشراق.

2- **مدرسة الفتيان للغات:** هي بالفرنسية (Ecole des Jeunes de Langues) التي أنشأها الملك لويس الرابع عشر سنة 1685، وكان من أسباب إنشائها ضرورة التلبية لظروف سياسية وتجارية اتجاه العالم الإسلامي وذلك نتيجة للمنافسة الشديدة التي قامت بين بريطانيا العظمى وفرنسا للمحافظة على مصالحها في المنطقة. والجدير بالذكر أن الهدف الرئيسي لهذه المدرسة كان تلقين الفتيان الطلبة اللغة التركية لأهميتها الدبلوماسية والاقتصادية أيام العثمانيين، ثم العربية فالفارسية. وأشهر تلاميذ مدرسة الفتيان للغات أنتوان جالان (Antione Galland) فهو أول مترجم لقصص ألف ليلة وليلة الى الفرنسية، 12 مجلد 1704 -1717، ولا تزال تطبع ترجمتة إلى الآن رغم نشر تراجم أخرى مثل طبعة ماردروس Mardrus. وفي الحقيقة كانت هذه المدرسة تؤهل قبل كل شيء هؤلاء الدبلوماسيين الذين نسميهم drogman، تلك الكلمة المشقة من لفظ " ترجمان " العربي.

3 – **المعهد الوطني للغات الشرقية :** يشكل هذا المعهد المرحلة الثالثة لترسيخ دراسة العربية وغيرها من اللغات الشرقية في النظام التعليمي الفرنسي، أسس هذا المعهد سنة 1795 بعد الثورة الفرنسية الكبرى بقليل وحل محل المدرسة السابق ذكرها، وكان ينص مرسوم التأسيس على ضرورة تعليم العربية الفصحى الى جانب العامية وعلى وجوب تأليف كتب في النحو العربي باللغة الفرنسية ليستفيد منها الطلاب. وأول أستاذ تسلم الكرسي في العربية الفصحى سيلفستر دي ساسي – صاحب كتاب هام في النحو والصرف عنوانه "النحو الواضح لطلاب معهد اللغات الشرقية" "- الذي لقن العربية خلال 43 سنة من 1795 إلى 1838. وهو كذلك أول مترجم للامية العرب لشنفرى. ولا يزال هذا المعهد نشيطا حتى اليوم إذ يتجاوز عدد اللغات الشرقية التي تدرس فيه السبعين لغة من عربية وصينية وروسية الخ...

وبازدهار النهضة الثقافية والعلمية بأوروبا ثم بالنزعة الإنسانية التي اصطبغ بها عصر التنوير (القرن الثامن عشر) تطورت رؤية المستشرقين للديانات الشرقية وخاصة بالإسلام، ولكل مظاهر هذه الحضارات أدبية كانت أم فلسفية وفنية. وسادت عليهم روح التسامح والانفتاح كما يتبين ذلك في مؤلفات فولتير(رسالة في الأخلاق، الرسائل الفارسية). ونلاحظ كذلك أن المناظرات الدينية ونقد الديانة الإسلامية التي تتخلل الخطاب الغربي طيلة العصور الوسطى (مثلا القول بأن الإسلام

مجرد فرقة وليس دين قائم بذاتة أساسة العنف والجهاد) قد خفت فيما بعد بفضل فلاسفة عصر التنوير وهي فكرة إنسانية موحدة على وجه المعمورة تحترم أسساً أخلاقية واحدة رغم اعتناقها عقائد دينية مختلفة. ومما ساعد على معرفة فرنسا بالشعوب الشرقية وعاداتها كتب الرحالة التي صدرت ما بين القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر وفي طليعتها "الرحلة الى سورية ومصر" لفولتي (1787). كما ظهر في الفترة عينها إحساس جديد بقيمة الأب العربي وجماله البلاغي والشعري، وهكذا ترجمت الى الفرنسية لامية العرب للشنفرى وبعض القصائد المشهورة الأخرى (1806). وبالمقابل قام بعض العلماء العرب بزيارة ديار فرنسا، أشهرهم العالم المصري الأزهري رفعة الطهطاوي الذي صاحب بعثة مصرية الى باريس (1830) وألف خلال إقامته هناك كتاب ذكريات مهم عنوانه "تخليص الإبريز فيْ تلخيص باريس" يتميز بروح الإنصاف ودقة الملاحظة.

4 – اتجاهات الأبحاث الاستشراقية خلال القرنيين التاسع عشر والعشرين:

لقد تميز الاستشراق الفرنسي طوال الفترة المذكورة بانكبابه على مواضيع معينة خلاصتها ما يلي : -

- **الدراسة اللغوية** : من المعروف أن اهتمام الباحثين باللغة العربية دفعهم الى تأليف كتب في النحو نذكر على سبيل المثال " النحو العربي " لسلفستر دي ساسي (1810) و" نحو العربية الدارجة وصرفها " لكوسين دي برسيفال (1824). وألفوا كذلك قواميس عربية فرنسية مستمدة من قواميس عربية أصيلة مثل لسان العرب لابن منظور أوتاج العروس وأخذ بعين الاعتبار اللهجات المحلية وهذا هو شأن يرتليمة مع قاموسه القيم في اللغة المحكية في سورية وبلاد الشام (1935) وبوسيار مع القاموس الذي وضعه في اللهجة الجزائرية.
- **تحقيق المخطوطات** : في فترة مبكرة قام المستشرقون لأول مرة بتحقيق الكثير من المخطوطات العربية مثل مقامات الحريري على يد دو ساسي وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ على يد درنبورج أو مروج الذهب الذي حققه مع ترجمة بافي دي كرتيل. ولاريب أن تلك المادة أثرت البحث العلمي آنذاك بشكل مباشر.
- **الترجمات** : حتى يتمكن الباحثون من الإطلاع على أمهات الكتب العربية انشغل المستشرقون بترجمتها الى اللغة الفرنسية ونذكر على سبيل المثال ترجمتي كازيرسكي وبلاشير للقرآن الكريم وترجمة بيلا كتاب البخلاء للجاحظ، وترجمة سانجينيتي لرحلة ابن بطوطة، وترجمة اندريه ميكيل لكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع. ونلاحظ ان تلك الترجمات كانت تغطي جل حقول التراث العربي مع ما فيها من أدب ولاهوت وتاريخ وفلسفة وما الى ذلك.

- **الدراسات الأدبية والتاريخية** : من الجدير بالذكر ان هؤلاء الباحثين أولوا اهتماماً كبيراً للأبحاث النظرية وأنتجوا عدداً من الكتب المعمقة في شتى المجالات العلمية، منهم دريجيس بلاشير صاحب كتاب "تاريخ الأدب العربي القديم" وليفي برفانسال صاحب تاريخ الأندلس "ولويس ماسينيون واضع كتاب "فكر الحلاج الصوفي" وهنري كوربين مؤلف "تاريخ الفلسفة الإسلامية"، واندرية ميكيل صاحب "تاريخ الإسلام. وتمثل هذه الدراسات بأسرها مراجع نظرية أساسية لكل باحث أم طالب يرغب في معرفة التراث العلمي العربي لما فيها من منهجية سليمة واستيعاب لما قدمته الحضارة العربية الإسلامية من إرث.

أما فيما يخص الاتجاهات الحديثة فأول ملاحظة هي ان كلمة " استعراب" أو عبارة دراسات شرقية صارت تحل محل كلمة " استشراق " منذ بضع سنوات وخاصة بعد نشر كتاب ادوارد سعيد المشهور إذا اصطبغت كلمة الاستشراق بصبغة سلبية نوعاً ما، بالإضافة إلى أننا انتقلنا من فترة موسوعية الى عهد التخصص في ميادين معينة من الحضارة العربية. الملاحظة الثانية هي ان الدراسات الشرقية شهدت منذ السبعينات تضخماً رائعاً على صعيد عدد الطلاب وتعدد الجامعات التي أنشئت فيها أقسام اللغة العربية، فلاشك أن هذا التطور يتماشى مع تعزيز علاقاتنا مع الدول العربية، وأحسن دليل على ذلك تشييد معهد العالم العربي في وسط باريس في الثمانينات. فقد نلخص وضع الدراسات العربية كما يلي :

1. **الجامعات** : بعد ان كانت السوربون الجامعة الفرنسية الوحيدة في الأربعينات التي أنشأت كرسياً خاصاً للعربية، فهناك الآن 15 جامعة على الأقل يستطيع الطالب أن يدرس فيها العربية وآدابها وكذلك تاريخ العالم العربي. لكن هناك تفاوت بينها فيما يخص مستوى المتخرجين، ففي بعضها تدرس هذه المادة حتى مستوى الدكتوراة وهذا حال جامعات باريس وليون وأكس أن بروفانس وبوردو واستراسبوج وليل، وفي بعضها الأخر إلى درجة الإجازة فقط أو حتى درجه أقل وهي جامعات تولوز ونانت ونانسي وجرينوبل ورين وكليرمون. ومن الجدير بالذكر أن الأساتذة المستعربين جزء منهم من مواليد فرنسا وجزء منهم من مواليد الدول العربية ونلاحظ نفس الشيء بالنسبة للطلبة. ويتراوح عددهم بين 3000 و4000 طالب. فمنهم من يقصد التخصص في اللغة لكي يصبح أستاذاً بدوره أو مدرساً في التعليم الثانوي، ومنهم من حصل على اختصاص آخر مثل العلوم السياسية أو علم الاجتماع ويريد فيما بعد أن يصبح باحثاً سيركز أبحاثة على العالم العربي والإسلامي وحضارته. وعلى صعيد الدكتوراة نستقبل الكثير من الطلاب الموفدين من الجامعات العربية مغاربية كانت أم شرقية مع إمكانية الإشراف المشترك التي تتيح للطالب الفرصة لأن يحرر رسالته إما بالعربية وإما بالفرنسية وأن يناقشها إما في بلده وإما في فرنسا.

أما المعهد الوطني للغات الشرقية الأنف الذكر. فيتابع أنشطته العلمية الجليلة ويعتبر حاليا أكبر قسم للدراسات العربية في فرنسا مع اكثر من ألف طالب متسجلين فيه. وأخيرا لا بد من ذكر المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (Ecole Pratique des Hautea Etudes) بالسوربون التي يترد عليها طلاب الدكتوراة في مجال فقه اللغة العربية والفكر الإسلامي.

2. ميزة من ميزات فرنسا هي كذلك وجود مركز خاص للبحوث المعمقة في العلوم الإنسانية والتطبيقية ألا وهو المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS) التابع لوزارة التعليم العالي و البحث العلمي والذي مقره بباريس. طبعاً له فروع كثيرة في مختلف المدن. كل فرع أو فريق يضم عدداً من الباحثين الذين يقومون بأبحاثهم في شتى المجالات. وفيما يخص الدراسات العربية والإسلامية مثلا يوجد بعض المراكز المختصصة كمركز الدراسات الشرق أوسطية (Groupe de Recherches et d'Etudes sur la Mediterranee et la Moyen-Orient) في ليون ومعهد الدراسات عن العالم العربي وحوض المتوسط بآكس. وفي هذه المراكز عدد لا بأس به من الطلاب الذين يعملون على أطروحتهم ومنهم نسبة كبيرة من الطلاب العرب. فدور المركز الوطني للأبحاث العلمية بالاشتراك مع الجامعات المختلفة أساسي لتطوير المعرفة العلمية ونشرها.

3. المؤسسات العلمية الأخرى التابعة لوزارة الخارجية الفرنسية أو التعليم العالي والبحث العلمي: لقد أنشئت المعاهد الفرنسية للدراسات الشرقية في البلاد العربية نفسها. فكان دورها ولا يزال، أن تستقبل بعض المتفوقين من بين طلابنا وطلاب القطر المتخصصين في حقل الدراسات العربية والإسلامية وأن توفر لهم كل التسهيلات اللازمة من مكتبة وإمكانية حضور حلقات البحث ومقابلة المواطنين ممن يمت بصلة الى الثقافة والعلوم والى غير ذلك. سأكتفي بذكرها سريعاً:

- المعهد الفرنسي للشرق الأوسط (IFPO) الذي يضم منذ سنة 2003 كلاً من المعاهد الثلاثة التالية :

* المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق وحلب (IFEAD). الاختصاص : اللغة، العصر الوسيط، التاريخ، الآثار الإسلامية، تاريخ الفكر.

* مركز الدراسات والبحوث في الشرق الأوسط المعاصر ببيروت وله فرع بعمان (CERMOC). الاختصاص: علم الاجتماع، علم الانثروبولوجيا، العالم العربي المعاصر، العلوم السياسية.

* المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى (IFAPO) ببيروت وله فرع في دمشق وعمان. اختصاصه: دراسة الآثار الشرقية الخاصة بحضارات ما قبل الإسلام.

- مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والحقوقي بالقاهرة (CEDEJ). اختصاصه: علم الاجتماع، مصر الحديثة، علوم سياسية.

- المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة أيضاً (IFAO). ينقسم هذا المعهد الى قسمين : قسم الدراسات عن مصر القديمة، وقسم الدراسات القبطية والإسلامية.

- المركز الفرنسي للدراسات الأثرية والعلوم الاجتماعية بصنعاء (CEFAS). الاختصاص : العلوم الإنسانية المتعلقة بالجزيرة العربية واليمن.

- مركز الدراسات عن المغرب المعاصر بتونس (IRMC). الاختصاص : علم الاجتماع، تاريخ المغرب المعاصر.

- مركز جاك بيرك للعلوم الإنسانية والاجتماعية بالرباط (CESHS). الاختصاص : العلوم الإنسانية والاجتماعية المتعلق بالمغرب الأقصى.

4- **معهد العالم العربي** : يشكل هذا المعهد الفخم الذي مولتة الحكومة الفرنسية ومعظم الدول العربية واجهة العالم العربي والحضارة الشرقية بباريس إذ أنه يساهم مساهمة فعالة في إعلام الجمهور الفرنسي بأسره عما أنتجته الحضارة العربية منذ القدم من تحف فنية ومنجزات علمية وآثار أدبية، وذلك عن طريق ندوات وملتقيات ومعارض ومجلات يصدرها المعهد مثل مجلة "المختارات" التربوية ومجلة "مارش" العلمية، بالإضافة إلى ذلك مكتبته القيمة التي يؤول اليها يوميا المئات من القراء، هواة كانوا أم مختصين، ومركز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها سواء كانوا مبتدئين أم متقدمين.

ففي الفترة المعاصرة تلعب علوم الاجتماع دوراً مركزياً في مجال دراسة الحضارة الشرقية إذ تمنحها كادراً نظرياً منطقياً وتدفع بالباحثين إلى الاعتماد على عدة علوم إنسانية في آن واحد لدراسة ظاهرة من ظواهر تلك الحضارات، وهذا ما يسمى بالفرنسية pluridisciplinarite، وهناك ميزة أخرى هي أن الكثير من الجامعيين الغربيين المختصين بالعالم العربي عرب الأصل مما يساهم في ربط صلة وثيقة بين العالمين. نذكر منهم جمال الدين بن الشيخ وأعماله في الادب العربي ومارون عواد أعماله في الفلسفة العربية ورشدي راشد وأثاره المتعلقة بتاريخ العلوم عند العرب.

ففي حين أن المستشرقين القدامى كانوا ينجزون عادة أعمالاً موسوعية، فإن الباحثين المعاصرين يقومون بأعمال معمقة تخص مواضيع دقيقة جداً كدراسة بيير لوري في الكيمياء أو

هنري لورنس في تاريخ فلسطين منذ القرن التاسع عشر علاوة عن ذلك، نلاحظ حالياً ميلاً الى ترجمة نصوص نظرية من العربية الى الفرنسية، وهذا حال مؤلفات باحثين مثل عبدالله العروي وأحمد بيضون وعابد الجابري، وصادق جلال العظم ونصر حامد أبو زيد. وبالمقابل نقلت الى العربية كتب كثيرة وضعها المستشرقون مثل كتب محمد أركون في الدين ونيكيتا أليسييف في التاريخ القديم وشارل بيلا في الأدب العباسي.

5 - نقد الاستشراق

بالرغم من إسهام المستشرقين في معرفة إنجازات الحضارة العربية كما أشرنا إلية سابقاً، فهناك من نقدهم نقداً لاذعاً لعدة أسباب سنتوقف عندها ولو سريعاً. وكلنا يتذكر المشادة التي خاضها جمال الدين الأفغاني وأرنيست رينا أيام النهضة والجدل الذي قام بين أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهره ولويس ماسينيون وحتى ماكسيم رودنسون على أنه أحد أشهر المستشرقين فإنه انتقد منهجية زملائة ومسلماتهم عند دراسة الإسلام.

لكن ادوارد سعيد هو الذي شن أعنف هجمة على الاستشراق بكتابه المشهور Orientalism مع ما فيه من ايجابيات وبعض المبالغة أحياناً. ومن أهم تلك الهجومات مايلي : يعتبر البعض أن المستشرقين الأولين قد خدموا بترجماتهم مصالح الديانة المسيحية ومصالح الغرب العلمية (الرياضيات، الطب الخ...) ممهدين للنهضة الثقافية والاقتصادية التي عاشتها أوروبا انطلاقاً من القرن الخامس عشر. مع نشأة الدولة العثمانية، خدموا بصفتهم دبلوماسيين أو مترجمين موفدين إلى دول الشرق مصالح فرنسا وغيرها من البلدان السياسية والتجارية. ثم، في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، اتهموا بأنهم بفضل دراساتهم عن المجتمعات العربية والإسلامية آزروا السياسة الاستعمارية وعاضدوا التوسع العسكري الأوربي في البلدان الشرقية وخاصة حملات فرنسا وبريطانيا. وحتى في أيامنا هذه يقف الباحثان الأمريكيان دنيال بيبس وبرنارد لويس مثلاً موقفاً ايديولوجيا يصطبغ بصبغة الاستصغار تجاه الحضارة الإسلامية والنزعة إلى إثبات مركزية الحضارة العربية.

وقد يؤاخذ على بعض المستشرقين الأوائل تطبيق منهجية تقليدية من الناحية المعارفية (أبستيمولوجية) وعدم اعتمادهم على العلوم الاجتماعية وفلسفة العلوم والنقد الأدبي المتبع في مجال الدراسات الأدبية في فرنسا، ولا على الدراسة المقارنة إلخ... بالإضافة إلى تلك المآخذ قد نذكر أيضا عدم اهتمام المستشرقين القدامى بالإنسان في المجتمعات المدروسة وتركيزهم على ظاهرة اللغة والديانة الإسلامية او المسيحية الشرقية وكأن ركيزة هذه المجتمعات الدين لا غير وكأنها مفعمة بالعناصر الروحية المحضة، وكلنا يعرف أنها ولو كان العنصر الديني فيها أساسياً فإنها ككل المجتمعات تتسم بإنتاج فكري وفني غير ديني كذلك. فبالتالي أعتقد أن وراء اتجاه

الدراسة هذا فكرة مسبقة وهي أن الدول الشرقية جمعاء كانت مائلة إلى الأبعاد الروحية في حين أن الحضارة الغربية مستندة إلى العقل والمنطق ومن ثم فإنها تصبو لا محالة إلى التقدم التقني وأدى بهم إهمالهم الدوافع الاجتماعية والاقتصادية والسكانية –ربما بشكل لا واعي –إلى بناء صورة خيالية غير حقيقية للشرق، زد على ذلك أنهم لم ينتبهوا أبداً إلى ضرورة الحوار مع الباحثين العرب والتفاهم ما بين الطرفين مما سبب النقد اللاذع الذي وجهه ادوارد سعيد وقبله جمال الدين الأفغاني لما طعن في أفكار رينان المادية، حتى مفهوم الشرق بدا لادوارد سعيد خاطئاً غير سليم علمياً وابستيومولوجياً. وبعد حروب الاستقلال في الخمسينيات ونشوء ما يطلق عليه اسم الإسلام السياسي يظهر المستشرقون وكأنهم يدافعون عن إيديولوجيا علمانية ويؤيدونها في وجه الإسلام. فهناك إذاً سوء تفاهم متبادل لابد من تجاوزه للوصول إلى تعايش لا بل تواصل بناء.

6- نحو ضرورة الحوار

بالرغم من صحة هذا النقد، لابد من الإشارة إلى أن أعمالهم، أعني المستشرقين، كانت راندة في كثير من الأحيان وصارت مراجع لا يستغني عنها الباحث. أذكر على سبيل المثال لا الحصر أبحاث هنري لاوست عن ابن تيمية والحنابلة، ولويس ماسينيون عن الحلاج، وشارل بيلا عن الجاحظ ومحمد أركون عن ميسكويه وادرية ميكال عن الجغرافيين العرب وعن الأدب القديم. معظم هذه المؤلفات ترجمت إلى العربية مما يدل على أهميتها واحترام القراء العرب لها. ومن ناحية أخرى، لا شك أنهم شجعوا دراسات مهمة عن الأدب الشعبي والتقاليد الشعبية لم يكن العرب يتوقفون عندها كثيراً وخاصة قصص ألف ليلة وليلة. كما أنهم حافظوا على مئات المخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية في فترة لم يكن الناس يولون أهمية لها في الشرق العربي وربما تفادوا، بجمعهم هذا، تبعثر تلك الكنوز ووضعوها تحت متناول الجميع.

وفي أيامنا هذه يبدو أن الحوار أمر ضروري بين الشرق والغرب وقد يشكل جماعة الباحثين صلة الوصل المثالية بينهما بإقامة ندوات مشتركة وتنظيم برامج بحث تضم زملاء عرب وفرنسيين ونشر كتب جدية بعيدة كل البعد عن المقاربة السطحية التي تشوب مقالات الجرائد والمجلات خاصة إذا تعلقت بالإسلام والوضع في منطقة الشرق الأوسط، فإحدى وظائفنا إطلاع جمهور القراء العرب والأوروبيين حتى يستطيعوا رفض الأفكار والادعاءات العدوانية التافهة الشائعة على كلتي الحضارتين والتي تسيء للجميع.

وكما أسست في الغرب منذ القرون الوسطى مراكز دراسات استشراقية، كذلك كان ينبغي أن تؤسس في العالم العربي والإسلامي مراكز دراسات استغربية تساهم في معرفة أفضل لأسس الغرب الثقافية والدينية والاجتماعية لدى الأوساط المتنورة وعند المواطن العادي. والحقيقة أن

التصورات التي نشأت في ذهن الناس بالشرق عن الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين أقرب للأسف الشديد إلى التصورات الخيالية الوهمية منها إلى الحقائق المنطقية.

نلاحظ إذن أن معظم دراسات المستشرقين كانت تتصف بروح علمية حقيقية، أما الطابع الايديولوجي فكان يسيطر فقط على بعض الأبحاث التي كان المقصود منها إثبات مركزية الحضارة الغربية وهامشية الحضارة العربية والإسلامية. ولا بد من التفريق –في هذا المجال كما قلنا –بين الدراسات الجدية المعمقة التي يقوم بها باحثونَ متخصصون، والمقالات والكتب السخيفة عن العالم العربي. فأصحابها ممن لا يمت بصلة إلى العلم، بل هولاء (مثل السيدة فلاتشي حديثاً) ينهجون منهج الايديولوجيا خاصة بعد حوادث 11 أيلول 2001. فأنا مقتنع – حتى نحول دون هذه النزعات المكروهة – بضرورة التوزيع في الأسواق لأبحاث تعميمية ألفت على أيدينا، نحن المتخصصين بغية إطلاع جمهور القراء بالحقيقة العلمية.

قدم للنشر في 2004/2/26 وقبل في 2004/9/8

الهوامش

1. طبعت ترجمة روبير دي شستر للقرآن الكريم لأول مرة بمدينة بال (سويسرا) عام 1550.